أمثلة من القرآن:

تأصيلاً لهذا المفهوم، ومزيد بيان لهذه القضية، **سأختار أمثلة من كتاب الله**، تقصّ سير الأنبياء والمرسلين وبعض الدعاة من الأمم السابقة، حيث يتّضح من خلال هذه القصص، **المنهج الذي سلكه أولئك**، والنتائج التي حققوها، ليكون عبرة ونبراسًا لنا ومن يأتي بعدنا.

وسأعرض كل قصة بالقدر الذي أرى أنّه يحقق الغرض من إيرادها، مقتصرًا على أبرز هذه القصص، وأقربها صلة بموضوعنا.

١ ـ قصة نوح:

ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نوحًا ، عليه السلام ، في تسع وعشرين سورة من سور القرآن، وقد جاء في بعضها في أكثر من موضع، ومنها سورة نزلت بكاملها في نوح وقومه، وهي سورة نوح.

إن قصة نوح مع قومه قصة عظيمة مليئة، بالدروس والعبر، ومما يكسبها أهمية خاصة ماتميزت به، **ومن ذلك**:

(ا) أنّ نوح ، عليه السلام ، أوّل رسول إلى البشر، وكل أول له خصوصيته وميزته.

(ب) طول المدة التي قضاها في قومه، حيث مكث (٩٥٠) سنة.

(جـ) أن نوحًا ، عليه السلام ، من أولي العزم من الرسل.

(د) كثرة وروده في القرآن، حيث ورد (٤٣) مرة. في (٢٩) سورة من سور القرآن، أي في ربع سور القرآن ـ تقريبًا[١٤].

وسأذكر بعض الآيات التي وردت تقصّ علينا سيرة نوح مع قومه، ثم أقف بعض الوقفات حولها:

قال ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة الأعراف: ﴿لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٥٩].

هذا جوهر دعوة نوح، حيث دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده، وحذّرهم من مغبة مخالفته.

وتأتي مرحلة أخرى يواجه فيها قومه بعد استكبارهم وعدم استجابتهم، قال ـ سبحانه ـ في سورة يونس: ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كَبُرَ عليكم مَقَامِي وتذكيري بآيات الله فعَلَى الله توكّلتُ فأجمعوا أمركم وشركاءَكُم. ثم لا يكن أمركم عليكم غُمَّةً ثم اقْضُوا إليّ ولا تُنْظِرُون﴾. [سورة يونس، الآية: ٧١].

وتأتي أطول قصة لنوح مع قومه في سورة هود، حيث حاجّهم وجادلهم وبيّن لهم طريق الهداية، حتى قالوا: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾. [سورة هود، الآية: ٣٢].

---

(١٤) لأن سور القرآن (١١٤)، و(٢٩) ربع (١١٦).

ثم يبين الله له النهاية في هؤلاء ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفُلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغْرَقون﴾. [سورة هود، الآيتان: ٣٦، ٣٧].

ونقف بعض الوقفات المهمّة حول قصة نوح، مما له ارتباط بموضوعنا:

١ - كم لبث نوح في قومه؟ ﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا﴾. [سورة العنكبوت، الآية: ١٤].

٢ - ماهي الأساليب التي اتخذها نوح لتبليغ رسالة ربه؟ لقد اتخذ كل وسيلة مشروعة في محاولة لهدايتهم وتعبيدهم لله؛ ﴿قال ربّ إني دعوت قومي ليلًا ونهارًا فلم يزدهم دعائي إلا فِرارًا. وإنّي كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشَوْا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارًا. ثم اني دعوتهم جهارًا. ثم إني اعلنت لهم وأسررت لهم إسرارًا﴾. [سورة نوح، الآيات: ٥، ٦، ٧، ٨، ٩].

٣ - ماذا كانت النتيجة من هؤلاء؟:

﴿قالوا أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون﴾. [سورة الشعراء، الآية: ١١١]. ثم قالوا: «لئن لم تنته يانوح لتكوننّ من المرجومين﴾. [سورة الشعراء، الآية: ١١٦].

٤ ـ من آمن مع نوح؟

لم يؤمن معه إلا قليل، حتى إن زوجته لم تؤمن به، وكذلك أحد أبنائه، ولنقرأ هذه الآيات:

﴿قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القـول ومن آمن وما آمن معه إلاّ قليل﴾. [سورة هود، الآية: ٤٠].

﴿ونـادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾. [سورة هود، الآية: ٤٥]. ﴿قال يانوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح . .﴾. [سورة هود، الآية: ٤٦].

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾. [سورة التحريم، الآية: ١٠].

٥ ـ وأخيـرًا ماذا قال نوح ، عليه السلام ،؟ ﴿قال رب إن قومي كذبون* فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين﴾. [سـورة الشعـراء، الآيتـان: ١١٧، ١١٨]. ﴿فـدعـا ربّـه أنّي مغلوب فانتصر﴾. [سـورة القمـر، الآية: ١٠]. ﴿وقال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكـافرين ديّارا* إنك إن تذرهـم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجرًا كفارًا﴾. [سورة نوح، الآيتان: ٢٦، ٢٧].

٦ ـ وتحقق الانتصار لنوح بعد هذه الرحلة الشاقة العسيرة:

﴿فـدعـا ربه أنّي مغلوب فانتصر* ففتحنا أبواب السماء بماء

منهمر* وفجّرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر* وحملناه على ذات ألواح ودُسُر* تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر* ولقد تركناها آية فهل من مدّكر﴾. [سورة القمر، الآيات: ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥].

هذه قصة نوح، ومع هذه السنوات التي قضاها، بل القرون، حيث لبث قرابة عشرة قرون، ماذا كانت النتيجة؟

(ا) لم يؤمن من قومه إلا قليل، قيل إنهم ثلاثة عشر بنوح، عليه السلام، قال ابن اسحاق: نوح وبنوه الثلاثة، سام، وحام، ويافث، وأزواجهم، وستة أناس ممن كان آمن به(١٥).

(ب) لم تؤمن زوجته ولا أحد ابنائه كما سبق، وهم أقرب الناس إليه.

(جـ) ومع ذلك، فإنه يعد منتصرًا، بل إنّه حقق أعظم الانتصارات، ويتمثل ذلك فيما يلي:

١ ـ صبره وثباته طوال هذه القرون، وعدم ميله إلى محاولات قومه ـ وحاشاه من ذلك ـ أو تأثره باستهزائهم وسخريتهم ﴿ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منّا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾. [سورة هود، الآية: ٣٨].

---

(١٥) انظر تفسير الطبري ٨/٢١٥.

٢ ـ حماية الله له من كيدهم ومؤامراتهم: ﴿قالوا لئن لم تنته يانوح لتكوننّ من المرجومين﴾. [سورة الشعراء، الآية: ١١٦].

٣ ـ إهلاك قومه الذين كذبوه بالغرق، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قومًا عَمِين﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٦٤].

٤ ـ نجاة نوح ومن آمن معه، ﴿فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٦٤]. ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا﴾. [سورة القمر، الآيتان: ١٣، ١٤].

٥ ـ إن قصة انتصار نوح وإهلاك قومه أصبح آية يُعتبر بها، وجعل الله لنوح لسان صدق في الآخرين ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدّكر﴾. [سورة القمر، الآية: ١٥].

﴿ذرية من حملنا مع نوح إنّه كان عبدًا شكورًا﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣]. ﴿سلام على نوح في العالمين﴾. [سورة الصافات، الآية: ٧٩]. ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾. [سورة آل عمران، الآية: ٣٣]. —

وهكذا تتضح حقيقة النصر، من خلال قصة نوح وقومه.

وقبل أن أتجاوز قصة نوح، عليه السلام، وقفت عند آية وردت في سورة نوح، حيث، قال: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجرًا كفّارًا﴾. [سورة نوح، الآية: ٢٧].

وبما أنّه لم يكن في الأرض يومئذ إلا قوم نوح، وقد كفروا بالله،

وتمردوا على رسوله، سوى فئة قليلة هي التي آمنت به، فإن الله ـ سبحانه ـ أهلك جميع من في الأرض، يومئذ سوى نوح ومن آمن معه، حماية للمنهج الذي ذكر نوح أنّه معرَّض للزوال إن بقي هؤلاء، فأهلك هؤلاء على كثرتهم من أجل عدد من البشر يحملون الحق ويذودون عنه. والدليل على أنّه لم يبق سوى من يحمل رسالة التوحيد أن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣]. قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: وذلك أن كل من على الأرض من بني آدم فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة.

قال قتادة: والناس كلهم ذرية من أنجى الله في تلك السفينة.

قال مجاهد: بنوه ونساؤهم ونوح(١٦).

وقيل هم ثلاثة عشر، رجالاً ونساءً(١٧).

قال ـ سبحانه ـ: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح﴾. [سورة نوح، الآية: ٥٨]. إن الانتصار وهو انتصار المنهج لا الأفراد، والعبرة ليست بكثرة المؤمنين والمستجيبين للحق، وإنما في المنهج الذي يحمله أولئك سواء أقلّوا أم كثروا، ولذا فإن بضعة نفر أو يزيدون، ولا يتجاوزون ثلاثة

---

(١٦) انظر تفسير الطبري ١٥/ ١٩.

(١٧) انظر تفسير الطبري ٨/ ٢١٥.

عشر فردًا يحملون الإسلام ويحققون معنى العبودية، يهلك أهل الأرض جميعًا حماية لهؤلاء وللمنهج الذي يمثلونه ويحملونه، مادام أن هناك خطرًا يهدد بزوالهم، ومن ثم زوال المنهج الذي يحملونه: **﴿إنَّك إن تَذَرْهُم يُضلّوا عبادَك ولا يلدُوا إلا فاجرًا كفّارًا﴾**. [سورة نوح، الآية: ٢٧].

ولهذا قال رسول الله، ﷺ، في بدر وهو يناجي ربه: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض**...»(١٨) الحديث. واستجاب الله لمحمد، ﷺ، ونصره في بدر ومابعدها، كما استجاب لنوح، عليه السلام، من قبله.

ومن **علامات انتصار دين الإسلام**، أنه لن تستطيع قوة في الأرض أن تهلك جميع المؤمنين كما كان يُخشى في عهد نوح أو في أول الرسالة ـ كما سبق ـ، لأن رسول الله، ﷺ، بين هذا كما ورد في الحديث الصحيح: «**لاتزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(١٩).

٢ـ أصحاب القرية:

وهي القصة التي ذكرها الله في سورة (يسٓ)، ولنقرأ هذه الآيات:

---

(١٨) اخرجه مسلم (١٧٦٣).

(١٩) اخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧).

﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم ألا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليَمَسَّنّكم منّا عذاب أليم﴾. [سورة يس، الآيات: ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨] قرية واحدة، وهي قرية انطاكية كما ذكر المفسرون، يرسل إليها رسولان، وعندما لم يؤمن بهما أهل هذه القرية، يرسل الله ثالثًا، ومع ذلك فيبقى هؤلاء على إصرارهم وكفرهم، وما زادهم إرسال الرسول الثالث إلا عُتوًا ونفورًا، بل هددوا برجم هؤلاء الرسل وقتلهم: ﴿لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم﴾. [سورة يس، الآية: ١٨]

وهل انتهت القصة عند هذا الحدّ، بل جاءهم رجل رابع، وهو من بني جلدتهم وناصح لهم، ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾. [سورة يس، الآية: ٢٠] ويستمر في حواره معهم ودعوتهم، وهذه المرة لم يهددوه، كما هددوا من قبله بل قتلوه عندما خالفهم، وهذا شأن الطغاة فإنهم لا يتحملون أن يخالفهم أحد من بني قومهم أو حاشيتهم.

وهكذا ثلاثة رسل وداعية من أهل هذه القرية لقرية واحدة،

ومع ذلك لم يستجيبوا للدعاة، ولم يكتفوا بعدم الاستجابة، بل هددوا الرسل ـ وقيل قتلوهم ـ وقتلوا الداعية الرابع.

إن مقاييس الأرض تُظهر أن هؤلاء الرسل لم ينتصروا ولم يحققوا أهدافهم، وأن هذا الداعية استعجل في الكشف عن هويته وإيمانه، ولذلك لقي جزاءه؟ هكذا يقوّم الحدث في نظر من لم يفهم حقيقة الانتصار، ولا معنى الهزيمة.

أما منطق الحق، ومنهج النبوة، فيعلن أن هؤلاء قد نصروا نصرًا مؤزرًا، وأن أصحاب القرية هم الخاسرون، ويتمثل النصر في الحقائق التالية:

١ ـ أن هؤلاء الرسل قد بلغوا رسالة الله، ولم يستسلموا لشبه أهل القرية أولاً، وتهديدهم ثانيًا، وهذه هي مهمتهم: ﴿وما علينا إلّا البلاغ المبين﴾. [سورة يس، الآية: ١٧]ومن أدى ما عليه فقد انتصر وفاز ونجح.

٢ ـ إيمان رجل من أهل القرية بهم، وتأييده لهم علانية، يُعدّ نصرًا وانتصارًا له ولهم، ولذلك كان ردّ أهل القرية عنيفًا تجاهه، لأنهم شعروا بخذلانه لهم، وخذلانهم نصر لأولئك الرسل.

٣ ـ أن قتل هذا الداعية نصر له ولمنهجه ﴿قل هل تربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾. [سورة التوبة: ٥٢] ولذلك، ﴿قيل ادخل الجنة﴾. [سورة يس، الآية: ٢٦] فتمنى أن يعلن عن فوزه وانتصاره،

﴿يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾. [سورة يس، الآيتان: ٢٦، ٢٧]

٤ ـ وتتويجًا لانتصارات هؤلاء الرسل وهذا الداعية، جاءت النهاية المحققة:

﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾. [سورة يس، الآيتان: ٢٨، ٢٩]

إن الدعاة في أمس الحاجة إلى أن يقفوا مع قصة أصحاب القرية، ويتدبروا أبعادها ونهاياتها.

ثلاثة رسل، وداعية مخلص صادق لقرية واحدة، ومع ذلك فلم يؤمنوا، وعدم إيمانهم لم يفت في عضد هؤلاء الرسل، ولم يمنع هذا الداعية من قول كلمة الحق، دون استعجال أو تنازل أو يأس.

بل إن هذا الداعية، كما ورد عند الطبري، كان يقول أثناء قتل قومه له: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»، بل إننا نلمس من قوله «يا ليت قومي يعلمون». أنه لا يقول هذا تشفيًا ولا من أجل إغاظتهم، ولكن من أجل هدايتهم، لأنهم إذا علموا أنه كان على الحق وقد قالوا للرسل: ﴿ما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون﴾. [سورة يس، الآية: ١٥] كان أرجى لهدايتهم.

وهذا من حرصه على هداية قومه، وهكذا يكون الداعية، محبًا

لهداية الناس، لا يحمل الحقد ولا الضغينة، وهذا هو الانتصار على النفس الذي يسبق الانتصار الظاهر، ومن حرم الانتصار على نفسه، فلن ينتصر على غيره.

٣ - أصحاب الأخدود:

قال الله - تعالى: **﴿قُتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾**. [سورة البروج، الآية: ٤، ٥، ٦، ٧، ٨]

قصة أصحاب الأخدود قصة عجيبة، تصور لنا معنى من معاني الانتصار الذي نتحدث عنه، وتبين أن استجابة الناس، أو ظهور الدين ليس هو المقياس الوحيد للانتصار، بل إن ثبات الداعية وانتصار المنهج هو قمّة الانتصار.

ولأهمية هذه القصة، فسأذكرها بتمامها، كما أوردها العلّامة ابن كثير - رحمه الله - حيث قال في تفسير هذه الآيات:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب أن رسول الله ، ﷺ، قال: «كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني، وحضر أجلي، فادفع إليّ غلامًا لأعلمه السحر، فدفع إليه غلامًا كان يعلمه السحر،

وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر، قال: فأخذ حجرًا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني وإنّك ستبتلي، فإن ابتليت فلا تدل عليّ.

فكان الغلام يُبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم(٢٠)، وكان للملك جليس فعمي، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني، فقال ما أنا أشفي أحدًا، إنما يشفى الله ـ عز وجل ـ فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربي. فقال: أنا؟ قال: لا،

---

(٢٠) بإذن الله

ربي وربك الله، قال: أولك ربّ غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني: بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحدًا، إنما يشفي الله ـ عز وجل ـ، قال: أنا؟ قال: لا، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه ـ أيضًا ـ بالعذاب فلم يزل به حتى دلّ على الراهب، فأتى بالراهب، فقال ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقّاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، فقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به، فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئتَ، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك، فقال: كفانيهم الله ـ تعالى ـ فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلاّ فغرّقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله ـ تعالى ـ ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك

به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهمًا من كنانتي، ثم قل: بسم الله ربِّ الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه، وقال: بسم الله ربِّ الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنّا بربِّ الغلام.

فقيل للملك أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدَّد فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلاّ فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أمّاه فإنك على الحق(٢١).

هذه قصة أصحاب الأخدود بطولها، وقد أوردتها لأهميتها، وقد أعجبت بما قاله سيد قطب ـ رحمه الله ـ حول هذه القصة مبينًا حقيقة الانتصار فيها، ولذا سأذكر بعض ما قاله، ثم أضيف ما

---

(٢١) رواه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب رضي الله عنه [٧٣ ـ (٣٠٠٥) كتاب الزهد].

أراه حولها مما له صلة بموضوعنا:

وكان مما قال ـ رحمه الله ـ: (٢٢)

(في حساب **الأرض** يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان، وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان.

في حساب **الأرض** تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة.

حساب الأرض يجيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة.

ولكن القرآن يعلّم المؤمنين شيئًا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصورًا على الغلبة الظاهرة، **فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة**.

إن الناس جميعًا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس لا ينتصرون ـ جميعًا ـ هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا

---

(٢٢) سأختار من كلامه ماله صلة بهذا الموضوع.

ينحــررون هذ التحــرر. ولا يـطلقـون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده. تشارك الناس في الموت، وتنفرد دون ـ كثير من ـ الناس في المجد، المجد في المـلأ الأعـلى، وفي دنيا النـاس ـ أيضًا ـ إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال.

لقـد كان في استـطاعـة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لايمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون أنفسهم، وكم كانت البشرية كلها تخسر، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهـادة الحياة بلا عقيدة، وبشـاعتهـا بلا حرّية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد.

﴿ومـا نقمـوا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾. [سورة البروج، الآية: ٨]. حقيقة ينفي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله، في كل أرض، وفي كل جيل.

إن المعـركـة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، وليست شيئًا آخر على الاطلاق وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلاّ الإيمان، ولا يسخطون منهم إلاّ العقيدة)(٢٣).

---

(٢٣) انظر معالم في الطريق فصل هذا هو الطريق ص١٧٣

وبعد هذه الدروس التي استخلصها سيد قطب من هذه القصة، أقف عدة وقفات حولها.

١ - **ثبات الراهب والأعمى**، وتخلي الأعمى عن جميع متع الحياة الدنيا في مقابل أن يظفر بعقيدته، إن الراهب قد انتصر في معركة بقائه أو بقاء عقيدته، فاختار أن تبقى العقيدة ولو خسر حياته.

أما الأعمى فقد انتصر مرتين، **انتصر** عندما تخلّى عن مكانته عند الملك مع ما في ذلك من جاه ومكانة، **وانتصر** عندما تخلّى عن حياته في مقابل عقيدته.

إنَّ الراهب والأعمى قد خلّدا لنا معاني عظيمة من معاني الانتصار الحقيقي، بعيدًا عن التأويل والتبرير الذي يغطي فيه كثير من الناس ضعفهم وخورهم بستار يوهمون فيه الآخرين أنهم إنما فعلوا ذلك من أجل الدين، ولو صدقوا لعلموا أن انتصار الدين بأن يفعلوا ما فعله الراهب والأعمى.

٢ - **عجيب أمر هذا الغلام!** لماذا دلّ الملك على مقتله، ولماذا - مادام أن الله قد منعه من الملك - لم يؤثر البقاء ليبلغ رسالة ربه، ويدل الناس على الدين الحق، ويبقي على حياته سالـمًا.

هذا سؤال قد يتبادر إلى الأذهان:

والمفهوم التي لم تعرف حقيقة الانتصار. إن الغلام قد أدرك - بتوفيق من الله - أن كلمة في لحظة حاسمة صادقة، تفعل ما لا

تفعله آلاف الكلمات في عشرات السنين.

● إن الحياة مواقف، يتميز فيها الصادق من غيره، وقد سنحت فرصة عظيمة لا يجوز تفويتها، ولا يليق تبرير ضياعها، وكما قيل: «إذا هبت رياحك فاغتنمها». وقد هبت رياح هذا الغلام، وهل رياحه إلّا تبليغ رسالة ربه، ولو دفع حياته ثمنًا رخيصًا في سبيل الله؟

● إنّه انتصار الفهم، وانتصار الإرادة، وانتصار العقيدة عندما تتحول في صدر صاحبها إلى قوة مؤثرة، وحياة صادقة، وليست على هامش حياته وسلوكه وتفكيره، إن هذا الغلام قد انتصر عدة مرات في معركة واحدة، وموقف واحد:

● انتصر بقوة فهمه وإدراكه لأقصر وأسلم الطرق لنصرة دينه وعقيدته، وإخراج أمته ومجتمعه من الظلمات إلى النور.

● وانتصر بقدرته على اتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب، متخطيًا جميع العقبات، ومستعليًا على الشهوات وحظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا.

● وانتصر على هذا الملك الغبي، الذي أعمى الله بصيرته، فأخرب ملكه بيده، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

إن الناس قد يتعجبون لأن الغلام قد دل الملك على مقتله،

ولكنهم لا يدركون أن الملك قد قتل نفسه بيده لا بيد غيره، فأيهما أولى بالعجب والتعجب؟

إن الغلام أقدم وهو يعي حقيقة ما يفعل: أما الملك فأعمته سكـرة الملك وشهـوة السلطان عن أن يدرك ما خطط له هذا الغلام، في هذه المعركة الفاصلة التي مات فيها فرد وحيت أمّة.

- **وانتصر الغلام** عندما تحقق ما كان يتصوره ويتوقعه وقدّم نفسه من أجله، فآمن الناس وقالوا: آمنّا بالله ربّ الغلام.

إن دقة التخطيط وبراعة التنفيذ، وسلامة التقدير، نجاح باهر، وفوز ظاهر.

- **وانتصر الغلام عندما فاز بالشهادة.**

في سبيل الله، فكل الناس يموتون، ولكن القليل منهم من يستشهدون.

- **وانتصر أخيرًا** عندما خلّد الله ذكره قدوة لمن بعده، وذكرًا حسنًا على لسان المؤمنين، حيث جعل الله له لسان صدق في الآخرين.

٣ ـ وتتويجًا لهذه الانتصارات المتلاحقة:

تأتي نهاية القصة، عندما آمن الناس برب الغلام، آمنوا بالله وحده وكفروا بالطاغوت، وهنا جنّ جنون الملك، وفقد صوابه، فاستخدم كل ما يملك من وسائل الإرهاب والتخويف، في محاولة يائسة، للإبقاء على هيبته وسلطانه وتعبيد الناس له.

ثم يحفر أخاديده، ويوقد نيرانه، ويأمر زبانيته وجنوده بإلقاء المؤمنين في النار، وتأتي المفاجأة المذهلة، بدل أن يضعف من يضعف، ويهرب من يهرب، لا تسجل الرواية أن أحدًا منهم تراجع أو جبن أو هرب، بل نجد الإقدام والشجاعة، وذلك بالتدافع إلى النار، وكأن الغلام قد بثّ فيهم الشجاعة، والثبات وها هم يجدّون في اللحاق به، وكأنهم يتلذذون في تقديم أرواحهم فداء لدينهم، تموت الأجسام وتحيا الأرواح عند خالقها:

﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٦٩].

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

● والحالة الفريدة التي وردت في الرواية، هي تلك المرأة التي خافت على رضيعها، ولكنها نسيت أنها قد أرضعته الإيمان والشجاعة والإقدام مع اللبن الذي كان يشربه، فطلب منها التقدم، فأقدمت.

● أيّ أمة تلك، وأي قوم أولئك، مع الزمن الطويل الذي عاشوه في الظلام، والسنوات التي استعبدهم فيها هذا الملك، ومع قصر المدة التي عرفوا فيها الإيمان، فقد عرفوا المنهج حق المعرفة، وكأنهم عاشوا فيه كما عاش الراهب طول عمره، أو تربّوا عليه كما تربى الغلام في صباه.

● إنه الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، ولامس الأرواح يفعل العجب.

● **لقد رأينا في قصة الراهب والأعمى ثم الغلام انتصارًا فرديًا.**

ولكننا في قصة أولئك المؤمنين نرى انتصارًا جماعياً، قل أن يحدث له في التاريخ مثيلاً.

إنه صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وسلامة الطريق، وفهم حقيقة الانتصار.

٤ ـ **وقبل أن نغادر هذه القصة، يرد سؤال في الأذهان:**

ماذا حل بهذا الملك وحاشيته وجنده؟

وهل ذهبت دماء هؤلاء المؤمنين وأرواحهم دون انتقام من الله لمن قتلهم؟

إننا لا نجد في القرآن ولا في السنَّة أي ذكر لهؤلاء الظُّلمَة، وماذا كان مصيرهم في الدنيا، ولله في ذلك حكمة قد تخفى علينا.

نعم وردت آية في آخر قصتهم فيها دعوة لهم وتحذير **﴿إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يَتُوبُوا فلهم عذاب جهنَّمَ ولهم عذاب الحَرِيقِ﴾**. [سورة البروج الآية: ١٠].

قال الحسن البصري: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»(٢٤).

---

(٢٤) تفسير ابن كثير ٤/٤٩٦.

إن هذه النهاية تحقق معنى من معاني الانتصار، من المنتصر؟ الذي نصر عقيدته ودين ربه، وحُرّق بضع دقائق، ثم انتقل إلى جنات النعيم، أو ذلك الذي تمتع بأيام في الحياة الدنيا ثم مآله ـ إن لم يتب ـ إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق؟.

هل هناك مقارنة بين الحريق الأول، والحريق الثاني، حريق الدنيا، وحريق الآخرة؟ إنها نقلة بعيدة، وبَوْن شاسع، أما المؤمنون الذين حُرّقوا في الدنيا، فـ ﴿لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾. [سورة البروج الآية: ١١]. وتعلن النتيجة التي لا مِراء فيها، ولا جدال:

«ذلك الفوز الكبير». أليس هذا هو الانتصار؟.

أحاديث في الانتصار

وردت بعض الأحاديث عن رسوله الله، ﷺ، نجد فيها دلالة لحقيقة الانتصار، وإزالة لما يُتوهَم من معنى الهزيمة.

وسأذكر أربعة أحاديث، وأقف مع كل حديث مبينًا وجه الاستدلال فيه.

١ ـ الحديث الأول:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله، ﷺ، «عُرضت عليّ الأمم